توات المُقاوِمة: دراسة في الأدب والأعلام – الجزء الأول

Resistance in Tuat : A Study of Literature and Prominent Figures-Part One

أ.د/ **إدريس بن خويا***
جامعة أحمد درايعية أدرار
مخبر المخطوطات الجزائرية في إفريقيا
benkhoia.idriss@univ-adrar.edu.dz

أ.د/ **فاطمة برماتي**
جامعة أحمد درايعية أدرار
مخبر المخطوطات الجزائرية في إفريقيا
f.bermati@univ-adrar.edu.dz

تاريخ الاستلام:2025-02-16 تاريخ القبول:2026-04-14 تاريخ النشر:2026-06-09

ملخص:

يندرج هذا البحث المعنون الأدب التواتي المقاوم وأعلامه في شطره الأول، الذي من خلاله حاولنا بسط الحديث حول نصوص شعرية ونثرية لشعراء وأدباء تواتيين استطاعوا تسجيل حضورهم في الأدب التواتي المقاوم، ومنه تم الوقوف على مجموعة من الشعراء في الفصيح والعامي؛ كمثل: السكوتي، وبوتقي، والقبلوي الفلاني...وغيرهم من الشعراء التواتيين الذي حاولوا وصف بعض المعارك، مثل معركة إينغر، وغيرها.

الكلمات المفتاحية: أدب، توات، مقاومة، شعر، معارك.

Abstract :

This research, entitled Tuatian Resistance Literature and its Flags, is part of the first part, through which we tried to simplify the discussion about poetic and prose texts by Tuatian poets and writers who were able to register their presence in the Tuatian resistance literature, including a group of poets in vernacular and colloquial literature, such as: Al-Sakouti, Boutki, Al-Falani tribalist ... and other Tuatian poets who tried to describe some of the battles, such as the Battle of Inger, and others.

KeyWords: Literature, Tuat, Resistance, Poetry, Battles

* أ.د/ إدريس بن خويا

المقدمة:

من المتعارف عليه أن التواتيين أسهموا بقصائد عديدة في وجه المحتل المستدمر، من خلال ما نجده من نصوص نثرية وشعرية، تفيد بصريح اللفظ والمعنى مناصرتها لقضية الثورة والجهاد ضد المستعمر الفرنسي الغاشم المحتل، وهو عمل يعد جهادا بحد ذاته؛ لأن مؤازرة الثوار تتعد فيه الطرق والأساليب؛ فالجهاد بالقلم لايقل شأنا عن الجهاد بالسلاح، وغير ذلك من طروق وأساليب المشاركة في الدفاع عن الأرض والعرض والشرف.

ولأجل الإجابة عن الإشكالية المطروحة، أين تتمثل صور أدب المقاومة في توات ؟ أردنا أن نجيب عنها من خلال وقوفنا على بعض النماذج النصية النثرية والشعرية كجزء أول، لعلنا نخصص الجزء الثاني كتكملة لهذه الدراسة من خلال الإشارة إلى شعراء أسهموا بالقلم والقلب لنصرة ومؤازرة إخوانهم الثوار الذين واجهوا المستدمر الفرنسي بشتى طرق الدفاع وأساليبه.

ولعل ما تناقلته الأجيال في هذا الجانب، فإننا نقف على صرخة الشيخ سيدي محمد التواتي التي انطلقت من رحم القرن 09هـ-15م وما سجله وبلغ صداه آذان المحتل الإسباني لوهران حينها، كما عُرف الشيخ بوقفته البطولية في وجه المستدمر الإسباني، وله في ذلك نص شعري حرّض به أهل وهران على التصدي للغزو الإسباني (جعفري، 2011، صفحة 418)، وهو ما نجده في مطلع قصيدته قائلا (جعفري، 2011، صفحة 418، وسعد الله، 1990، صفحة 173/1):

يا أهل وهران انظروا نظر شفقة *** لبلدتكم من قَبل أن تردت
وقبل مجيء المنشآت ببحرها *** وأي قلوب عندها مستقرة
ولا تكلُوها غيرَكم ولئن يكن *** فما غائب مثل القَيم ببلدة

إلى أن يقول:

فجودوا بفضل المال في حفظ كله*** وأهل جيران وشيخ وصبية
وما يغني عنكم مالكم إن أتاكم *** عدو بليل بسدفة سحرة
وقد عظم الله الديار خروجها *** فحذرتكم والله يعلم نيتي

إلى أن قال:

وقد كانت بلاد الغرب تحمي ديارهم *** وتنجدهم بالعون في كل وجهة

كما نظم الشاعر سيدي أبي العباس سيدي أحمد زروق بن محمد بن موسى بن صابر الجعفري (ت1244هـ) قصيدته في حملة نابليون على مصر سنوات 1798-1801 وما أبداه المسلمون من بسالة وشجاعة في مقاومتهم للجيوش الفرنسية في دخولها إلى باحة حرم الأزهر الشريف والتي أنست ما حققه جيش الروم

من نصر في جزيرة مالطا، وقصيدته جاءت على إيقاع بحر السريع، وشارك بها عموم المسلمين فرحتهم وراح يذكر فيها الفرنسيين بسوء طالعهم حيث يقول (جعفري، 2011، صفحة 429-433):

قل للفرنسيس كبا جدكم *** وردتم وردا بلا مصدر
البر والبحر بساط لكم *** لا فوت إن الله منهم بري
حسبتم مصر كمالطة *** وصادق اللهجة كالمفتري
هيهات هيهات لا مفر لكم *** إلا على الصارم والسمر
من آل عثمان أتاكم فتى *** آخذ ثأر الدين في معشر
أسيد غضاب فوق صافنة *** في طالع يسمو على المشتري

***** **** ****

وأيد الله أئمتنا *** بمرد من ملكه الأكبر
واختص مولانا سليمان *** بالتمكين والتأييد والظفر
ونصر الله عساكرنا *** بحرمة المختار في مصر
صلى عليه الله ما ابتهجت *** نفوس أهل الحق بالوطر
خير صلاة وسلام بلا *** حد يفوق أرج الزهر
ورضي الله عن الآل والـ *** أصحاب أعلام الهدى الغرر

ومما نجده -أيضا- من القصائد لشعراء تواتيين جاءت لتحكي عن وقائع المقاومة أو تأييدها في بلدان أخرى غير الجزائر أو توات على وجه التحديد، وإن كنا لم نشأ الإطالة فيها، هو ما نجده في نظم الشيخ الكنتي (ت1226هـ) في قصيدة استنفر بها فوارس المغرب العربي من عرب وعجم لنجدة مصر من براثين جيش الفرنسيس، محرضا أبناء جلدته لنصرة إخوتهم في مصر، حيث نجده يقول (جعفري، 2011، صفحة 434-435):

فلا غيور يذود عن مضاجعها *** ولا جسم له عزم وإيقان
ظل هذا يذود القلب من أسف *** إن كان في القلب إيمان وإحسان
يا أهل مغربنا هبُوا لقارعة *** كانت بساحتكم والقلب ولهان
أين الفوارس من عرب ومن عجم *** أين الملوك وعدنان وقحطان
وراكبين جهاد الخيل صارمة *** كأنها في مجال الشيق أقيان
احملوا على الروم..... *** ولا تبغوا عليهم فإن النصر معوان
لا يُدفع الكفر إلاّ باليقن فلا *** تغرك منه عساكر وأعوان
لا تدفع الظلمة الدهماء غاشية *** إلا بنور من الرحمن تبيان
لم تكفهم أندلس إذ أحاطوا بها *** وسبتت ومليلة و.....

حتى أتوكم بدار عزكم فغدوا *** يمحن دينكم في الحين نقصان

كما أدى الأدب المقاوم بتوات بشقيه النثري والشعري دورا كبيرا في وصف أحداث بعض المعارك التي قامت بتوات، ووصف –أيضا– بطولات رجالها الأمجاد، وذلك من خلال بعض النصوص التي وقعت عليها أيدينا، وكذا التي تم تسجيلها صوتيا ومشافهة من الشعراء في حد ذاتهم، ومن القصائد التي وجدناها قصائد الشاعر عبد النبي بوتقي، وكذا السكوتي، وغيرها من القصائد.

ومن صور شعر المقاومة بمنطقة عين صالح نتيجة ما وقع بمعركة إينغر؛ حيث إن المعركة بدأت في 25/24 يناير 1900، التي انهزم فيها جيش فرنسا وعادوا إلى عين صالح ليعززوا من قوتهم بالمدافع، عادوا يوم 26 يناير 1900 وخابت آمالهم من جديد وحاولوا مرة ثالثة يوم 10 مارس 1900، ثم حاولوا للمرة الرابعة يوم 14 مارس 1900 ولم تفلح خطتهم، جاءت المحاول الخامسة يوم 19 مارس 1900 بعد أن قاموا بتهديد القصبة والمسجد الذي وجدوا بداخله السيد باش إدريس باش تيمي الذي أرسلوه إلى الأغواط ومع بعض المساجين، ولم يعد منهم أي أحد، دامت المعركة ثلاثة أشهر وما جعلهم يصمدون كل هذه المدة هو أنهم أخذوا التجربة من معركة الفقيقرة، فكانوا لا يحاربون العدو إلا في الليل وبالسلاخ الأبيض، على الرغم من أنه حاول إعادة الكرة مرات عديدة، إلا أنه واجه مناوشات عنيفة من طرف سكان إينغر، مما أدى به إلى طلب المزيد من الأسلحة والعساكر، وتزويد بسلاح المدفعية من المركز الكائن بالمنيعة، وذلك لغرض اقتحام القصبتين المحصنتين (التومي، 2012، صفحة 149، وغيتاوي، 2012، ص18–19). ومن خلال ذلك، ما نجده في بعض القصائد التي تحكي لنا وقائع تلك المعركة بالعامية، التي منها قصيدة الشاعر العلامة عبد الرحمان السكوتي.

الشيخ العلامة عبد الرحمن السكوتي:

وُلد بقرية ساهل من بلدية أقبلي، أولف بأدرار سنة 1285 هـ، حفظ القرآن وسمع الحديث الشريف وقرأ علوم العربية والفرائض والحساب وغيرها من العلوم على يد خاله الشيخ السيد حمزة بن الحاج أحمد الذي يعد عميد علماء تلك الناحية في تلك الفترة. له كتاب مفقود في علم المنطق، وأرجوزة في علم الفرائض سماها جوهرة الطلاب في علمي الفروض والحساب وهي موجودة، بالإضافة إلى نظمه العديد من القصائد الشعرية.

وافته المنية أثناء عودته من الديار المقدسة بعد أداء فريضة الحج والزيارة في ينبوع النخيل بين مكة والمدينة سنة 1333 هـ/1911م دون أن يخلف أولادا (بلعالم، 2005، صفحة 1/240–247).

قصيدة الشيخ ثورية، تعد وثيقة جهاد معبرة بصدق وإخلاص عن إرادة وفرحة الأمة من خلال مشاعر الشاعر الصادقة بكل عفوية، وهي قصيدة بعث بها إلى أهل إينغر لمّا انتصروا في المعركة الطاحنة التي دارت بينهم وبين المستعمر الفرنسي إبان دخوله للناحية، والقصيدة نجدها تتضمن معلومات مهمة عن الجهاد واستعداد الشرفاء

للتضحية من أجل الوطن؛ حيث نجده يقول فيها (التومي،2012،صفحة 149-150، وغيتاوي، 2006، ص124-125):

يا أهل إينغر للسماء مجدكم *** سما وصيتكم يعلو وينتشر
لله دركم بعتم نفوسكم *** من الإله بجنة لها خطر
فحبذا ذاك من بيع وعاقده *** وحبذا ثمن قد ساقه القدر
جاهدتم بنفوسكم وأموالكم *** في الله لا مسكم أذى ولا ضرر
بشرى وروح ورحمة ومغفرة *** فاستبشروا برضى الإله وافتخروا
نصر من الله مع فتح قريب وعو *** نه يعينكم والحفظ والظفر
والنصر يصحبكم متى توجهتم *** والعون والفلح والتأييد والبشر
وعداً على الله حقا سوف ينجزه *** والوعد لا يعره التغيير والغير
حازوا جميع المعالي والفخار فلم*** يبقوا لغيرهم فخرا ولم يذروا
لم يرهبوا كثرة العدو إذ جمعوا *** لهم وقد حسبوا من بعد ما صبروا
إذ أيقنوا بعد ذا بنصر وبهم *** أكرم بها عصبة بالله ينتصر
من ينصر الله ينصره ويظفره *** وليس يقدر أن يكيده بشر
فالنصر آت لجند الله حقا كما *** أتى بذاك نص الذكر والخبر
يمشون أن حمى الوطيس يوم الوغى *** للموت قدماً ونار الحرب تستعر
يرجون في ذاكم رضوان خالقهم *** لذاك لم يعرهم ضعف ولا خور
فالدين عز بهم جنابة واحتمى *** والكفر يرهقه الإذلال والصغر
رمت حماهم كلاب الروم من سفه *** فحاق بالروم ما راموا وما مكروا
أبو خزيا حيارى يحملون على *** أكتافهم جيفا مأواهم سقر
فالأرض من دم كلماهم ملونة *** كما بقتلاهم ملئت الحفر
قل للكوافر أن نظمتم حيلة *** فأهل إينغر قبل نظمكم شعروا
وإن جمعتم عليهم جنود الردى *** فجمع ذا اللف بالتفريق ينتشر
هام العدا نثروا لنظم شمل الهدى *** لله مانظموا في الله مانثروا
فأصبح الدين في عز وفي صعد *** والكفر في درك الإذلال ينحدر
إلى الحضيض ولازالت وجوه العدا *** يغشاهم الخسف والقتار والعفر
بشرى لدين الهدى نصر يعز به *** وذمة لم يكن بعهدها خفر
أبقاكم الله تنصرون دين الهدى *** كما بكم جيش أهل الكفر ينكسر
كسوتم الناس لباس العز من بعدما *** أضحوا عراة ولولاكم لما ستروا

كساكم من جميل الذكر فعلكم *** حليً مدى الدهر لا يعفو لها أثر
أزكى الصلاة على أولى الأنام بها *** مع السلام وصحبه ومن نصروا

الشاعر بوتقي عبد النبي بن محمد بن موسى:

هو المجاهد المرحوم بوتقي عبد النبي المولود خلال 1860م والمتوفى سنة 1920م، ابن الشهيد محمد بن موسى وبن الطيب يمينة بنت الزوبير، شاعر موهوب، وطان يجمع بين البادية والحضر، وأحد رواد المقاومة الشعبية وسيد قبيلته، كما أنه سجن وعُذب بسبب قصائده الشعرية الساخرة من فرنسا ومعظّميها، وحُكم عليه بالإعدام ونجا بأعجوبة من مقصلة تاغصميت بباتنة من سنة 1914م إلى سنة 1918م (وثيقة تاريخية، صفحة 09).

وأنه لما رجع المجاهدون من معركة الدغامشة شرعوا في تحضير البارود وتقطيع الحديد وجمع القوات والعتاد والتموين بكل ما هو ضروري لخوض المعركة، كما كان الرد بعدم استسلام أهالي إينغر للعدو، حيث يقول شاعر المقاومة الشعبية بإينغر عبد النبي بوتقي في هذا الشأن (غيتاوي، 2006، صفحة 119):

ابعث بوشاطورة يدور التسيار *** واحلفنا بلا مان لا صارت منا

ويقول زعيم المعركة بقصبة المرابطين عزي الحاج امحمد قولته المشهورة: " والله لو ماتوا أكبارها وطيحوا أسوارها وتخلطوا أنساها مع أصغارها لا نستسلم" (غيتاوي، 2006، صفحة 119).

كما أن الشاعر عبد النبي بوتقي له قصيدة –أيضا– تصب في قالب مقاومة إينغر لفرنسا الغاصبة، فالشاعر يقودنا من خلال قصيدته الهادفة إلى وضع المجتمع حينها ورغبة كل حر، بأن يدافع عن عرضه وأرضه، وخاصة المجاهدين الأبطال الذي ضحوا بالنفس والنفيس لأجل فجر جديد، ومن أبيات القصيدة نجد (التومي، 2012 ، صفحة 151، وغيتاوي، 2012، ص18، و2006، ص119-121):

ضاقت روحي وخاطري داخل تزيار*** من العملة صاحب الغدر والمظونا
تزاير غير المكتوبة والمقدرة فيا لزمان *** لا بد نصرفوه لشي دار كنا

وأرسل بوشاطوا لسيد *** فزعهم من تزاير إلى التمييزنا
واحد راكب مخازني لآخر خاسر *** ماحد قياد يأمر بالمنفا لينا
اطلع فوق العرق واقذف النيران *** تسمع حس الزهير عند الحنانا
من نصف الليل إلى غد في نصف النهار *** صار القرطاس بينا عامل مزنا
فالعرق انصب مدافعوا وقدات النار *** كسر الأسوار كاملة كيف اخرجنا
يحجب رجال أينغر ماذا واسوا *** جبانا عملوا مثل أعمال على وانبنا
ألي كذب يشوف ماعملت الأبطال *** عادوا مثل الأجراد جيفا فالجبنا
أقتلنا منكم ثمنين قبطان *** عسكر وسوريا شيم اسولنا
اضربنا من بعيد وعقب علي *** وامشي غضبان ياسود المغبونا
الأدبار غاب استقلالنا ولاجانا باخبار *** خلانا عارقين في ذا الطرينا
امتنا في الجهاد ذاك اللي نختار *** ما قعدنا في بلادنا واتهنينا
قعدنا متجولين كل نهار بغار *** هذا الي كتب علينا مولنا
الغالب ماهوش عيب التسليما *** خلتق وقت النبي مادراك ولينا
قتلت البشر مع النساء والشيوخ *** الجملة في الحفير عادة مدفونا
الكبار ماتوا ضحوا من ثلث التحرار *** وإلى حين دو كراهم في المحنا
الجمعة والصوم والصلاة على المختار *** بجاه المرسلين احنا عشقنا

وبعد تركيز قوات العدو قصفها على القصبة الثانية (قصبة المرابطين) لفتح ثغرات بها، واستمر القصف عنيفا حتى غشيت السماء بسحابة من الدخان، إلا أن قوات الاحتلال لم تتمكن من السيطرة على الموقف إلاّ بعد أن فتحت العديد من الثغرات في أبراج القصبة الصامدة، في حين واجه المجاهدون مقاومتهم من سطوح المنازل رغم ضعف فعالية الأسلحة التي كانوا يستعملونها، أمّا الأسلحة المتطورة التي كانت بحوزة قوات الاحتلال (غيتاوي، 2012، ص20).

ولا بد من أن ننوه بأمر، هو أن الباشا تيمي طلب من الزعيم عزي الحاج أمحمد الاستسلام، إلاّ أنه رفض هذا الطرح، وبعد تحطيم قصبة المرابطين وسقوط الزعيم عزي الحاج محمد بداخلها حينها رفع الباشا تيمي الراية البيضاء، فتوقف عندها القصف، ودخل العدو بلدة إينغر بتاريخ 19 مارس 1900ثم تقدم عندها الباشا إلى قوات العدو، الذي أثبت لهم في الأخير أنه لم يستعمل ذخيرة السلاح التي كانت معه (غيتاوي، 2012، ص20-21)، وهو ما أكده شاعر المقاومة بوتقي عبد النبي في هذا الشأن بقوله (غيتاوي، 2012، ص21، و2006، ص122):

نعطيكم قصة لغريبة والدمعة طالعة الدردر ما هي **

** بهتاني هذا الباشا لي مغرب خبروا بكاني
هذا الباشا لي مغرب ومعاه آخرين كيف نعمل **
** قولي مقواني اسبابسي شاربين لخمر أخبرهم تالي

ونجد شاعر المقاومة الشعبية الذي حضر المعركة التي خلفت خسائر كبيرة في أوساط أهالي إينغر؛ حيث تمكنت قوات الاحتلال بعد هذه المعركة من التقدم والزحف على قصور توات ملحقة خسائر مادية في ممتلكات الأهالي انتقاما مما واجهته في بداية زحفها للمنطقة–، يقول (غيتاوي، 2012، ص22، و2006، ص122):

يلعن جد ويشوف ما عملت الأحرار *** خلينا مداينوا وسط الجنا
وارقد موتوا على باب النجار *** وجعل منهم قرب عين صالح جبانا
يحجب رجال إينغر ماذا وساو *** عملوا مثل أعمال علي وانبينا
اللي كذب يشوف ما عملت الأبطال *** عادوا مثل الجراد جيف في الجنا

ويزيد في موضوع آخر(نيكلو، 2007، صفحة 07):

قتلنا منكم ثمانين رتبة قبطان *** تمنطاعش كومندار والغير ماسولنا
وامية وعشرين منكم فراد فسيان *** عسكر والسارجان شي ما سولنا

ثم نجده يقول أيضا (نيكلو، 2007، صفحة 07):

خلفنا عهد جدودنا وقت أنبينا *** الغلبة ما هي شي عيب عيب التسليما

ومن قصيدة أخرى يرى الباحث نيكلو عبد القادر أنها للشاعر نفسه (نيكلو، 2007، صفحة 07):

جاوك متنين غي تهدر من سالي *** والعلام لخضر شرفاء أولاد العدنان
ترعاعهم بالله جملة نصر الجهاد *** النغراوي بلعيد على صيدو عازم
قال: بلادي ما تتدخل ما تخلق هادي*** ير اللي باللشفيع شهد بالله والنبي

الشيخ حمزة بن الحاج أحمد بن السيد محمد بن مالك القبلوي الفلاني:

وُلد سنة 1259هـ، بساهل بلدية أقبلي دائرة أولف، ولاية أدرار، وتوفي في رجب سنة 1335هـ بساهل أقبلي –رحمة الله عليه.

كانت له اليد الطولى في العلوم الشرعية والعلوم اللسانية، كما تولى تدريس تلامذته القرآن والحديث، تتلمذ على يديه العديد من الطلبة، منهم: العلامة الجليل الشيخ السيد محمد الحسن بن السيد محمد المزداد سنة 1283هـ، والمتوفى سنة 1352هـ بساهل ، والعلامة الشيخ محمد عبد الرحمن السكوتي الملايخافي المزداد عام 1285هـ بساهل، والمتوفى سنة 1332هـ، والعلامة الشيخ سيد الحاج محمد عبد القادر بن السيد محمد بلعالم

المزداد سنة 1298هـ، المتوفى سنة 1372هـ، والفقيه السيد أحمد بن محمد بن الحاج عبد القادر المتوفى سنة 1374هـ...

كما تحصل على عدة إجازات، منها إجازة والده التي هي عبارة عن فهرسة كبيرة تضمنت أسانيد الكتب مثل الصحيحين وغيرهما من كتب الحديث والفقه والنحو والتفسير وغيرها من الكتب، وكل كتاب يذكره بإسناده منه إلى المؤلف في أي موضوع من الموضوعات ..(بلعالم، 2005، ج1 صفحة 223-240).

وعلى غرار المعركة الطاحنة التي وقعت بين أهالي إينغر وبين المستعمر الفرنسي، فأننا نجد السيد حمزة بن الحاج أحمد القبلوي يبعث لأهالي إينغر أبياتا يُشيد فيها ببطولاتهم، ويهنئهم بجهادهم في سبيل الله وصبرهم وثباتهم أمام المستدمر الفرنسي الغاشم عند دخوله لهذه النواحي المسلمة، والقصيدة التي تمثل بحقيقة المقاومة يقول فيها (بلعالم، 2005، جزء 1صفحة 233، وغيتاوي، 2006، صفحة 123):

يا أهل إينغر يا أنصار دين الهدى *** حزتم جميعا أعز الفخر والسؤددا
مرابطكم وعربكم بأسرهم *** كذا مواليكم يا ناصرين الهدى
إخواننا ياحماة الدين فليُهنكم *** نصر من الله دائما لكم أبدا
نصرتم ملة الإسلام بشرى لكم *** أنصار دين الرسول المصطفى أحمدا
دفعتم بمدافع مؤيدة *** رجيعها يحتف الأعداء إذ غردا
بيضتم وجه أهل الدين بعد نُضُو..*** به كما بكم أسودت وجوه العدا
لا زال حيكم بالله منتصرا *** دوما وميتكم في الله مستشهدا
لازلتم الدهر في حصن حصين وفي *** وقاية الله آمنين كل الردى
أسررتمونا فلن نزال ندعوا لكم *** بالنصر والظفر والثبات طول المدى
بالمصطفى خير تسليم عليه كذا *** أزكى صلاة تعم الصحب أهل الندى

ثم أعاد نظم قصيدة أخرى تصب في المناسبة نفسها، لأولئكم الأبطال الكماة، فقال -رحمة الله عليه (بلعالم، 2005، جزء 1صفحة 233-235، والتومي، 2012، صفحة 152-153):

يا أثبت الناس إسلاما وإيمانا *** وارجع الناس في الفخار ميزانا
واصبر الناس في اللقاء يوم الوغى *** واحرز الناس للخصال ميدانا
وأحلم الناس بالمسكين أيا بدا *** وأسمع الناس للقراء قرءانا
أعني بهم حي إينغر العلي المدا *** طرا ولست أحاشي منه إنسانا
قوم ذوو هم في الفضل عالية *** وفخرهم صار فوق الهام تيجانا
كفاكم مفخرا ناهيك من مفخر *** عال بهم نصر الإسلام وازدانا
لله باعوا نفوسهم وأموالهم *** ومارضوا بسوى الفردوس أثمانا

في الله حق الجهاد جاهدوا كلهم *** من كان يعبد دون الله أوثانا
فإن تنادي أيا أنصار دين الهدى *** يأتوا بأجمعهم مثنى ووحدانا
بكل بطل مدجج أخى ثقة *** وكل قرم لدحض الكفر قرمانا
لله درهم ودر فارسهم *** وظلهم زاده الإله إيمانا
تراه إذ مرت الأبطال كلمى به *** هزيمة ثابت الجنان ما اكتانا
يجول فيهم يروم منهم منجدا *** يقولوا كونوا لله في الله أعوانا
فكل منهم بخنصر يعد إذا *** اعددت للحرب أبطالا وفرسانا
تعودوا الضرب حتى صار همتهم *** والرمي صار لهم دأبا وديدانا
قد أذكرونا عليا في شجاعته *** وفي المواساة عثمان بن عفانا
جازاهم الله عنا الخير أجمعه *** شريفهم ومرابطا وعربانا
حباهم الله إكراما ومرحمة *** وعزة وتفضلا ورضوانا
ونصرة ومبرة وتسليمة *** وفتحة وتحية ريحانا
ونعمة وبشارة ومغفرة *** وحور عين وجنات وولدانا
فالله ينصرهم ما كان أصبرهم *** في الروع إذ أوقدوا للحرب نيرانا
الله ينقذهم ما كان أحرصهم *** على قتال العدو أينما كانا
والله يحفظهم ماكان أصبرهم *** جأشا وأكملهم عقلا ورجحانا
الله درهم ماكان أكرمهم *** نفسا وأرجحهم دينا وإيمانا
فالله لولاهم أصبحت تكلت بل *** توات كل خلافا بينها بانا
فثبتوا الناس ثبت الإله قلو... *** ... بهم على الدين دنيانا وأخرانا
قد بددوا جيش حرب الكفر قتلا كما *** دعوا خبيثهم قهرا وقبطانا
إن جاء يضرب أصدريه من خنق *** قد آب يضرب مدرويه حيرانا
ولو نفورا كجيش حل ساحتهم *** طير أبابيل أو عصى ابن عمرانا
ستا وخمسين اهدوها إلى سقر *** موتا يلقون في الجحيم خسرانا
ومن بقى كلهم كلمى بنتناهم *** يجرعون من الآلام أحزانا
لله در الكمات أهل إينغر ما *** أسنا حلاهم وما أعلاهم شانا
ماكان أشعرهم بنظم خشب العدا *** لمثلها جزى النظام إحسانا
وعندما ميزوا حال الورى وبلو *** أخبارهم في ابتداء الأمر إعلانا
ضموا لرفعهم الإسلام نصب هدى *** بجر خفض ودوس الكفر ميدانا
فصح قصرهم من بعد علته *** وعنه كف العدا ككف ما كانا

فجزاهم بتسكينهم لرعب كل الورى *** لولاه ما زايل التحريك جسمانا
لولاهم لم يسغ شرب ولا مطعم *** ولا يرى حامل الإيمان وسنانا
وقد أنقذوا المسلمين بعد إشفائهم *** جزاهم الله إحسانا ورضوانا
أطال أعمارهم فيما عليهم به *** يرضى ويبدلهم بالخوف إيمانا
بأشرف الخلق أفضل صلاة وتسـ... *** ...ـليم عليه ومن بدينه دانا

الشاعر الشيخ سيدي الحاج محمد عبد العزيز سيدي عمر المهداوي الأموي:

هو الإمام الفاضل العالم العامل البحر الزاخر العلامة الفهامة علم من أعلام عصره، كوكب من الكواكب النيرة الزاهرة، ولد بزاوية جده مهدية المحمية سنة 1342هـ/1924م، وتوفى سنة 1429هـ/2008م (مبدوبي، 2013، ص59-60).

من مؤلفاته: شفاء الصدور في التوسل والجاه وحياة الأنبياء في القبور، وفتح الملك الوهاب بشرح هدية الألباب، وقطف الزهرات من أخبار علماء توات، وفتوحات العلي الوهاب على المنظومة المسماة بنصيحة الشباب، ومفتاح العلوم بحل ثلاثة من خير أنواع الفهوم، وجوهرة الفرائض بدروس منظمة ماؤها فائض، والسيرة الجامعة للأحداث التاريخية ومواقف خاتم النبيئين في التربية الحسنة... (مبدوبي، 2013، ص166-181).

وأما من حيث نضاله السياسي فهو لما كان لشيخه الاعتناء بطرد المستعمر الغاشم كما هو شأن العلماء في كل زاوية من زوايا القطر الجزائري، ويتضح لما نجده يوجه رسالة منظومة شعرا إلى الشعب الجزائري يدعوهم فيها إلى الجهاد والمقاومة نصها (مبدوبي، 2013، ص225-226).

لاسم الإله قبل قول نصدرا *** على المصطفى طه اصلي لننصرا
سلام على أهل الجزائر كالثرا *** ومن مهدوا الإسلام في سائر القرا
خصوصا مصالي الحاج ذا السيرة الغرا *** ومن به والأحرار جيشنا ينصرا
وذا علم يحوز من ناله فخرا *** على سائر الأنام قبته خضرا
كذلك الحفيظ حاطه منشئ الورا *** من الشرك والشكوك والحيف والمرا
وعلال من جهرا عنانا واخبرا *** بسلطاننا الذي علينا تسرا
له النصر قد أتى من الله غائرا *** كمثل البراق إذ به المصطفى سرا
فيا ربنا يا من يرانا ولا يرا *** به انصر قرانا وارد من قد تطورا
فمن أطاع واليا عليه تامرا *** فقد طاع ربا عالما بالذي جرا
جزيتم عن الإسلام خيرا موفرا *** من الملك المفضال عن سائر الورا
فقد فاح صيتكم وعمت به البشرا *** فياله من ذكر دركنا به قدرا
عبيد الكريم دمعه بقرم توقرا *** من أصحاب أحمد الرسول المنورا

عليه صلاة الله ما المزن امطرا *** وما الفجر بالأنوار ضاء وأسفرا
وآل ومن منه النفوس قد أشعرا *** إله السماء والعرض والفرش والثرا
ألا فاعلموا أن الجهاد تقررا *** فإنه فرض كل عام بلا امترا
على من على الإسلام كان تامرا *** بذا أمر المولى وجاء مسطرا
فجدوا أيا الإخوان في أجر الآخرا *** لأجل دوامه الفطين تشمرا
فهذي تجارة كمسك سمت قدرا *** لها كل عاقل تراه تبادرا
وصلوا على محمد أخير الورى *** تنالوا بها مناكم والدخائرا
بآخر جمادى الأولى نظمي تواترا *** من أعوام سبعة وستين غابرا
وألف مع الثلاث ميئ بلا مرا *** تضم من الهجرا لما قد تصدرا

ولما وافته المنية بعد اندلا ع الثورة المظفرة واصل الشيخ تحسيسه لهذا الأمر، وبدأ يحس هو الآخر على ذلك بالتعريض علنا لا بالتصريح إلاّ في اللقاءات الخاصة بذلك حتى لا يتعرض للانتقام من الأعداء، وواصل عمله بالمشاركة النضالية وبالثقة التي كان يتمتع بها وجوه القصور مع المساهمة المادية، كما كان له اتصال بالمجاهدين إبان الثورة التحريرية سراً في المناضلين إلى أن جاء طلب توقيف الحرب، فأطلع بذلك من قبل السلطة المعنية آنذاك، ولازال على ذلك النهج حتى الاستقلال، وهناك خرج للساحة أين ألقى كلمة توجيهية للمواطنين في إحدى التظاهرات الشعبية بعد الاستقلال مباشرة (مبدوبي، 2013، ص226).

وهذا نصه النثري منقول من خط يده تبين ذلك، حيث يقول: " بسم الله الرحمن الرحيم، وصلى الله وسلم على نبيه محمد وآله.

الحمد لله الذي أقام منار الدين بعد الدثور، بطائفة خالصة قيضها من أمة البشير النذير، والصلاة والسلام على سيدنا محمد القائل لا يزال قوم من أمتي ظاهرين لا يضرهم من خالفهم حتى يأتي أمر الله. أما بعد؛

فاعلموا أيها المواطنون الجزائريون إنه من الواجب علينا نؤدي شكر زعمائنا وشكر ثورتنا، وشكر جبهة تحريرنا، وشكر جيشنا وجنودنا، وأن نترحم دائما على شهدائنا الذين جاهدوا في الله حتى قوتلوا، بل هم أحيا عند ربهم يرزقون فرحين بما آتاهم الله من فضله ونديم الدعاء لأبطالنا وحكومتنا وولاة أمرنا، فإن شكر الوسائط واجب، وفي الحديث من لم يشكر الناس لم يشكر الله، فبفضل دم شهدائنا وثورتنا وجبهة تحريرنا وجنودنا نلنا ما كنا نتمناه ورجع إلينا ما غصب منا منذ قرن واثنين وثلاثين سنة، وصارت فرنسا الخبيثة في خذل مهين بعد أن كانت في عز مكين، وكان من تفوه بمثل هذا يقال إنه مجنون، ومن لم يرض لك لم شرفه يذوق ألم السجون، أو يبقى مسخرة للمنافقين، فلقد استولت على شرفنا وحريتنا وأرضنا وأموالنا وأفسد ملوكها بلادنا، وجعلوا أعزة أهلها أذلة، واتخذوا رؤساء مذبذبين وخبثاء زناديق مبذرين وبذلوا عليهم المال والشرف، فتمكنوا منا بهم لما سلبوا أديانهم وسحروهم، فصار يخيل إليهم أن فرنسا لا تفنى وإنها خالدة الذكرى، ونسبوا الموت والبعث والوقوف بين يدي الجبار المنتقم،

والحساب على القليل والكثير والمرور على الصراط المستقيم، وعمت منهم الأبصار والبصائر، فأنها لا تعمى الأباصر ولكن تعمى القلوب التي في الصدور فانقلب الحق في أعينهم باطلا، والباطل حقا، وذلك بسب ظلمة الهيكل الروحاني وإطفائه نوره الرباني، وأما من كان شرطيا لها أو من ولاة أمرها فتسول له نفسه أنه الرب الأعلى، وأما من انتمى إليه أو انتسب فليفعل ما شاء، وإذا جاءه المسكين أو صاحب الدين والحق معه يمشي على رجليه قال إنه الباطل الذي لا ريب فيه، ويسب ويهان به، وأما الغني أو المنافق فيأتي بالباطل الصراح فيقال له هذا لحق الوضاح، وبذروا البغضاء والعداوة والشحناء في قلوب المومنين ليتنازعوا فيفشلوا وتذهب ريحهم فتمكن ذلك الداء من ضعفاء العقول وصار المسلم يسب نفسه ودينه ولايشعر، وكل ذلك لا يخفى على علماء السنة والدين. ولكن لا يقدرون على النكير، إلا أن قلوبهم تتحمس كأنها على جمر الجحيم، لما لم يجدوا للحق وليا ولا نصيرا، فإن الذي له قدرة على هدم الفساد هو الذي ينيه، ولا يقبل النصح ولو من عالم نبيه ولا ينتهي عما هو فيه، قال عز جل: ﴿ **كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُ** ﴾ (سورة المائدة، الآية 79)، فإنا لله وإنا إليه راجعون على ماهدمت فرنسا من دينتا، ولو شئت أن أعد بعض مفاسدها التي عاينتها لاحتاج ذلك إلى كراريس من القرطاس، لكن في الإشارات عبارات، وبذكر واحدة تبدو لمن عقل. وهنا نحن اليوم والحمد لله قد زالت عنا تلك القيود، وتبدلت بثياب الرفاهية والسعود بفضل ثورتنا الحالية التي أعلت رايتنا على سعد السعود، وبفضل دم شهدائنا الذين خلدوا ذكر الجدود، وانتصرنا على أعدائنا وار ديننا يصول ويقول. ويجر ذيله على كل كفور وجهول، ويقول بلسان حاله جاء الحق وزهق الباطل وأفال؛ أي أفول. وصار حرب جزائرنا تاريخا وغرة في الدهور فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر. فهذا يوم عظيم، ومشهد مبارك كريم تمم الله لنا فيه مرامنا، واجتمعنا مع حكومتنا وجنودنا فآن لنا أن نطأ الثريا بأقدامنا، هذا الاجتماع الذي طالما كنا نتمناه منذ سنين عديدة، وهاته الحفلة التي ما رأينا مثلها في زماننا.

واعلموا أيها المواطنون الأحرار، إنّ هذا الاستقلال قد اشترى بثمن غال وهو دم مليون من الشهداء أو يزيدون، فيجب معرفة حقه والمحافظة عليه؛ فأنه لا يشترى بالثمن الأغلى إلا ما هو أعلى منه، ومن الحماقة أن تصيد غزالة وتتركها.." (مبدوبي، 2013، ص227-229)، هذا ما وُجد بخط يده –رحمة الله عليه.

دور الأدب الصوفي في المقاومة الشعبية:

إضافة إلى ذلك، نجد الحضور الصوفي في هذا الجانب واضح المعالم، وخاصة الورد الذي كان مستعملا في الزاوية الرقانية (غيتاوي، 2006، صفحة 138) ، كما أن هذا الورد الذي كان يستعمله أصحاب الرماية لزاوية مولاي عبد الله الرقاني لا يُمنح إلا بواسطة الشيخ، وأنه قد أُستعمل من طرف المشائخ الرقانيين في أوقات الشدة وإفراج الكروب والترويح عن النفس، والاستعانة على تعاسة الدنيا ونكدها؛ وهو يقوم على فكرة الجهاد في سبيل الله، وعلى هذا الأساس نشأت في الزاوية الرقانية فقرة الرماية أو كما تسمى في العامية فقرة المكاحلية؛ حيث إنّ هذا الورد الصوفي يستعمل في أوقات غير محدودة وغير معلومة، غير أن الطريقة الرقانية استعملته في أمور هي:

–أوقات تدريب الرماة والمجاهدين، ويظهر هذا جليا في الاستعداد لمعركة الدغامشة.

-عندما يضع المجاهد سبابته على زناده وهو في مجابهة العدو، مثال معركة الدغامشة ومعركة إينغر.

-عند شدة الكروب والهم والغم وكثرة المظالم.

-عندما يظلم المريد فهو سلاحه يوجه سبابته اليُمنى نحو من ظلمه ويخرجه باتجاهه، فينتقم الله منه أمام عينه. (سماعيلي، 2012، صفحة 62).

وبالتالي، نجد أن هذا الورد ينطوي تحت الأدب الصوفي في المقاومة الشعبية على الشكل الآتي (سماعيلي، 2012، صفحة 61):

- بسم الله وبفضل الله ورسوله صلى الله عليه سلم.
- بسم الله شديت ومديت.
- بسم الله الرحمن الرحيم ﴿ **وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَى** ﴾ (سورة الأنفال، الآية 17) صدق الله العظيم.

الخاتمة:

ومن خلال ذلك، يمكننا أن نخرج بمجموعة من النتائج أهمها:

-من المتعارف عليه أن التواتيين أسهموا بقصائد عديدة في وجه المحتل المستدمر، ولعل ما تناقلته الأجيال جيلا بعد جيل صرخة الشيخ سيدي محمد التواتي التي انطلقت من رحم القرن 09هـ-15م وما سجله وبلغ صداه آذان المحتل الإسباني لوهران.

- الشاعر عبد الرحمن السكوتي يعد من الشعراء الفطاحل الذين ناصروا آهالي إينغر من خلال قصيدته الثورية الصادقة المعبرة، وذلك لمّا انتصروا في المعركة الطاحنة التي دارت بينهم وبين المستعمر الفرنسي.

- كما يعد الشاعر المجاهد بوتقي عبد النبي بن محمد بن موسى أحد رواد المقاومة الشعبية وسيد قبيلته، من خلال قصائده الشعرية الساخرة من فرنسا ومعظّميها.

- نبّه الشاعر المجاهد بوتقي عبد النبي بن محمد بن موسى من خلال قصائده الثورية الهادفة بضرورة وضع المجتمع حينها ورغبة كل حر، بأن يدافع عن عرضه وأرضه، وخاصة المجاهدين الأبطال الذي ضحوا بالنفس والنفيس لأجل فجر جديد.

- شيّد الشاعر حمزة بن الحاج أحمد بن السيد محمد بن مالك القبلوي الفلاني ببطولات أهالي إينغر، وتهنئتهم بجهادهم في سبيل الله وصبرهم وثباتهم أمام المستدمر الفرنسي الغاشم لما دخل إلى تلك الديار واصفا إياهم بالأبطال الكماة.

– الشاعر الشيخ سيدي الحاج محمد عبد العزيز سيدي عمر المهداوي الأموي سجّلَ حضورا لافتا في مَتنِ الأدبِ المقاوِم؛ ويتضح ذلك جليا من خلال رسالته المنظومة شعرا، والموجهة إلى الشعب الجزائري يدعوهم فيها إلى الجهاد والمقاومة بصريح اللفظ.

– حضور الطرق الصوفي في جانب الأدب المقاوم بتوات واضح المعالم، وخاصة الورد الذي كان مستعملا في الزاوية الرقانية.

قائمة المراجع:

– سكان تديكلت القدماء والاتكال على النفس، التومي الحاج سعيدان، الجزائر، العالمية للطباعة والخدمات، ط2، 2012.

– بعض المعارك التي دارت رحاها في مناطق توات، الشيخ مولاي التوهامي غيتاوي، مداخلة منشورة ضمن أعمال الندوة السنوية السابعة تخليدا لإحياء مآثر الشيخ سيدي مولاي سليمان بن علي المعنونة " الزوايا الجزائرية ودورها في مكافحة الاستعمار"، المنظمة من طرف جمعية مولاي سليمان بن علي العلمية والاجتماعية، يوم 14 ماي 2012 بقصر أولاد أوشن، ولاية أدرار، مطبعة منصور الوادي.

– الرحلة العلية إلى منطقة توات، محمد باي بلعالم، ط1، 2005.

– وثيقة معنونة بـ" نبذة تاريخية توضح مصادر تواريخ ووقائع الغزو الاستعماري الفرنسي لمنطقة تديكلت وتصحح بعض المفاهيم وتزيل بعض الشوائب، المطبوعة من طرف جمعية التاسع والعاشر مارس 1900 التاريخية، إينغر، ولاية تمنراست.

– لفت الأنظار إلى ما وقع من النهب والتخريب والدمار بولاية أدرار إبان احتلال الاستعمار، الشيخ مولاي التهامي غيتاوي، منشورات ANEP، 2006.

– النبذة النيرة من حياة الذهب الإبريز الشيخ سيدي الحاج محمد عبد العزيز سيدي عمر المهداوي الأموي، لجامعها محمد فتحا بن محمد بن عبد الكريم البلبالي (مبدوبي)، دار صبحي للطباعة والنشر، غرداية، ط1، 2013.

– من تاريخ توات–أبحاث في التراث، د.أحمد أبا الصافي جعفري، منشورات الحضارة، الجزائر، ط1، 2011.

– أبحاث وآراء في تاريخ الجزائر، أبو القاسم سعد الله، 173/1، دار الغرب بيروت، لبنان، ط3، 1990.

– الديوان الشعري المشترك المعنون بـ " صهوات الكلام"، للشعراء أحمد العماري، وعبد القادر أعبيد، وبشير مسعودي، ومبارك قومني، (مخطوط).

– قصيدة تديكلت، للشاعر عبد القادر أعبيد، كتبت بأولف سنة 1999 (مخطوط).

– مرويات عن فرحات بن سليمان الدين، أدرار، نوفمبر 2015م.

- المقاومة الشعبية ضد الاحتلال الفرنسي لتوات، أ.عبد القادر بن محمد نيكلو، الجزء الثالث، مجلة النخلة، العدد 3، 2007م.

- جهادية الزاوية الرقانية وتأثيرها في توات، أ. مولاي عبد الله سماعيلي، مداخلة منشورة ضمن أعمال الندوة السنوية السابعة تخليدا لإحياء مآثر الشيخ سيدي مولاي سليمان بن علي المعنونة " الزوايا الجزائرية ودورها في مكافحة الاستعمار"، المنظمة من طرف جمعية مولاي سليمان بن علي العلمية والاجتماعية، يوم 14 ماي 2012 بقصر أولاد أوشن، ولاية أدرار، مطبعة منصور الوادي.